

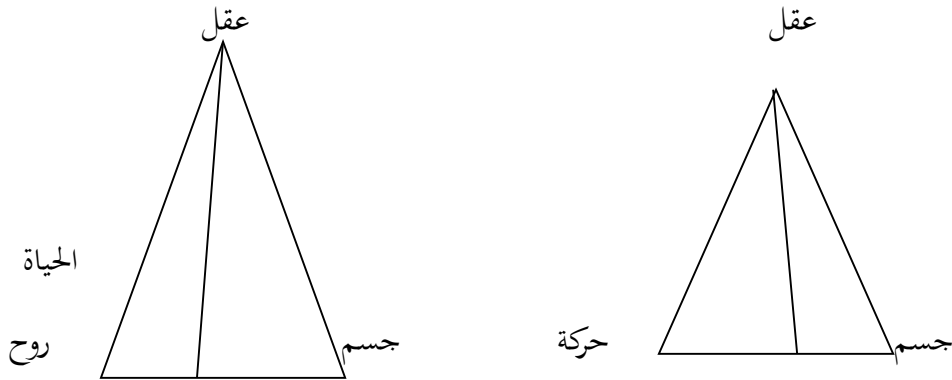
البعد المكاني في شعر سيدي لخضر بن خلوف.

أ. خالد السراج، جامعة يحي فارس، المدية.

تقديم:

للزّمان تعريفات ومفاهيم عديدة، فهو عند اليونانيين وخاصة أفلاطون « الحايي والقابل للشيء.»، أمّا أرسطو فيقول إنّه هو « الجسم المحيط ونهاية الجسم المحتوي.» والتعريفان معًا يتميّزان بالمفهوم الحسيّ للزّمان، وهما يمثّلان تمامًا الصّورة الذهنيّة للمكان لدى الإنسان البدائيّ، وهي صورة لمظاهر محسوسة تشير إلى أماكن أو مواقع لها خصائص عاطفيّة. وعند الفلاسفة المسلمين لا يبعد التعريف كثيرًا عمّا هو عند اليونانيّين، فإخوان الصّفا يرون أنّ « مكان كلّ متمكّن هو الجسم المحيط به.» ويرى ابن سينا أنّ « المكان هو ما يكون الشّيء مستقرًا عليه أو معتمدًا أو مستندًا إليه.»

إنّ التّظنر في مفهوم الزّمان مناسب للتّظنر في أمر ومفهوم المكان، لأنّ الزّمان من الأمور التي تلزم كلّ حركة. وعلى الرّغم من هذه الصّلة إلّا أنّ الأبعاد الزّمانيّة بقيت مستقلة إلى حدّ ما عن الأبعاد المكانيّة في كلّ العلوم التي تناولته بالدراسة؛ حتّى ظهرت نظريّة النسبيّة في العصر الحديث (القرن العشرين)؛ التي لم تفصل بين الزّمان والمكان مطلقًا، فهما كيان (أو كوّن) متّصل. وفي هذه النظريّة وكلّ ما تأثّر بها من علوم وأبحاث؛ صار الزّمان البعد الرابع للمكان، مع العلم أنّ النسبيّة هي مبدأ أونظريّة رياضيّة، ولهذا صار الباحثون يتناولون الزّمان والمكان كثنائيّة متّحد عنصراها. «وأصبح تعبير مكان زمانيّ أوزمكانيّ تعبيرًا دارجًا على ألسنة الفلاسفة ومن ثمّ الأدباء، وهو تعبير يتعلّق بالنسبيّة، وهو من أهمّ آراء أينشتاين.»⁽¹⁾ والأهميّة التي تعطي لنظريّة أينشتاين في النسبيّة العامّة؛ هي كونها أعطت لوحة فيزيائيّة ملموسة عن تبعيّة خواصّ المكان والزّمان للمادّة، وهذا باكتشافها الرّابطة المباشرة بين قياسات الفضاء الرّياضيّ الأبعاد وحقل الجاذبيّة العامّة. أمّا صموئيل ألكسندر فقد قرّن بين الزّمان والمكان، وبين العقل والجسم والروح بمثلثين؛ تمثّل كلّ زاوية منهما بعدًا من الأبعاد السابقة ليكون في النّهاية مثلثًا للحياة.



من هذا الرسم التوضيحي تظهر علاقة الزمان بالمكان كعلاقة العقل بالجسم، فلا يكون الأول إلا بوجود الآخر، ولا تكون الحياة إلا بوجودهما معهما (أي المكان والزمان)؛ فإذا كان المكان مستقلاً عن الزمان فهو مكان ميت، وكذلك الحال بالنسبة للجسم الذي يستقل عن العقل؛ فيخرج من دائرة الإنسان إلى دائرة أخرى. وبمفهوم آخر أو تعريف ثان: إذا كان الزمان بالنسبة للمكان كالروح بالنسبة للجسم، فإن معنى ذلك أنهما يكونان وحدةً حيوية لها صفاتها الخاصة الجديدة؛ وهذه الصفات ليست مجموعة الصفات الزمانية والصفات المكانية، وإنما هي ذات طبيعة موحدة تمامًا كما أن الكائن الحي ليس مجموع صفات الروح والجسم فقط.

مفهوم المكان فنيًا :

المكان الحقيقي الذي تحدثنا عنه عند الفلاسفة هو عالم الفلاسفة وعلماء الفيزياء والرياضيات والطبيعات، وهو مكان حسيّ وحقيقي لا يمكن فصله عن المكان الفني، فالعالم كما يقول شوبنهاور: « هو خيالي أنا.» إذ أن هناك مكانًا ينظر إليه من جوانب وأبعاد مختلفة فتضحى الأشياء المادية الواحدة متعددة الأشكال تبعًا لاختلاف الجوانب التي ينظر إليها ونفسية الناظر، فقد يرى غيري المكان براحًا واسعًا وآراه ضيقًا؛ لا يكاد يسع نملة في الأرض أو بعوضة في السماء. فالمكان أوسع ومتعدد من النظر الطبيعي إلى الحالة النفسية؛ يستعيد من خلاله الفرد التاريخ الشخصي المتجدد في اللاوعي المرتبط بهذا المكان أو ذاك.

ولعل أول تعريف للمكان فنيًا يمكن أن نبدأ به هو تعريف غاستون باشلار الذي يقول: «المكان الممسوك بواسطة الخيال لن يظل مكانًا محايدًا خاضعًا لقياسات وتقييم مادي، لقد عيش فيه لا بشكل وضعي بل بكل ما للخيال من تحيز وهو في حدوده.»² وتناول هودفينغ المكان النفسي والمكان المثالي، وفرق بينهما بقوله: «إنّ المكان النفسي الذي ندرکه بحواسنا مكان نسبي، لا ينفصل عن الجسم المتمكن؛ على حين أنّ المكان المثالي الذي ندرکه بعقولنا مكان رياضي مجرد ومطلق، وهو وحده متجانس ومتصل.»³ إذن المكان المثالي هو المكان الحقيقي لدينا، والمكان النفسي هو المكان الفني الذي نقصده في مداخلتنا هذه.

مدخل :

قبل الشروع في تناول مفهوم المكان عند سيدي لخضر بن خلوف إرتأينا أن نبدأ بتمهيد بسيط نعرّف فيه المكان الفني عند بعض الأدباء وبعض النقاد. تقول خالدة سعيد: «المكان التاريخي هو المكان الذي يستحضر لارتباطه بعهد مضى، أولكونه علامة في سياق.» وترى الأستاذة اعتدال عثمان: «أنّ المكان الشعري هو نظام من العلاقات المجردة، لا يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد المجرد الذهني» أما ياسين نصر فيقول: «إنّ المكان الفني شأنه شأن أيّ عنصر من عناصر البناء الفني، يتجدد عبر الممارسة الواعية للفنان، فهو ليس بناءً خارجيًا مرئيًا ولا حيّرًا محدد المساحة، ولا تركبًا من غرف أو أسيجة ونوافذ؛

بل هو كيان من الفعل المتغيّر والمحتوي على التّاريخ. «ويضاف إلى هذا» أنّ العناصر المكانيّة يتمّ تقديمها من خلال فكرة تعليق القراءة، أي أن تجعل القارئ أو المتلقّي يستعيد تجربة المكان الأليف.»⁴ ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذّهن : هل المكان الفنيّ مرتبط فقط ببيت الطّفولة أو المكان الأليف كما يقول صاحب كتاب جماليّات المكان؟ إنّ المكان عند سيدي لخضر بن خلوف أوسع من ذلك بكثير.

أنواع المكان أو الفضاء :

اقترح الباحث الرّوسيّ ميخائيل باختين أربعة أنواع من الفضاء الفنيّ:

- . الفضاء الخارجيّ.
- . الفضاء الدّاخليّ.
- . الفضاء المعادي.
- . فضاء العتبة: وهو فضاء يتمثّل في الحافلات والأكواخ والفنادق والبواخر والسيّارات والقاطرات....
- ومن الباحثين الذين تحدّثوا عن الفضاء نذكر الدكتور عبد الحميد بورايو في دراسته المكان والزّمان في الرواية الجزائريّة، فقد ميّز في بحثه بين الحيّز النّصّي والحيّز المكانيّ فقال:
- . **الحيّز النّصّي**: يقصد به الصّورة الشّكليّة التي قدّمت بها الرواية الجزائريّة للقارئ من حيث ترتيب أقسامها، وفيما يتعلّق بعنونها ومضامين فاتحتها.
- . **الحيّز المكانيّ**: ويقصد به كلّ ما يشمل الأماكن سواء المتخيّل منها أو المكان الفعليّ الذي له مرجعيّة واقعيّة.
- كما تناول الدكتور عبد المالك مرتاض بالدّراسة المكان في حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، وهي حكاية حمّال بغداد؛ حيث وظّف المنهج السّيميائيّ التّفكيكيّ في تحليله لها. وقد قسّم مرتاض عنصر المكان إلى مستويات، هي:
- . الحيّز الجغرافيّ.
- . الحيّز الشّبيه بالجغرافيّ.
- . الحيّز المائيّ.
- . الحيّز المتحرّك.
- . الحيّز التّائه.

. الحيز العجيب الغريب .

وظائف المكان :

يرتبط المكان بعدة أشياء تؤدّي وظيفة معيّنة، فهناك الأماكن الأسطورية، وأخرى خرافية وبعضها روائية، وطابع هذا المكان يحدّد بأنه واقعي أو خيالي أو رمزي، ومن وظائفه:

. الإلمام بالواقع: أيّ العمل على انتساب الواقع إلى الملامح المميّزة للمكان.

. إضفاء طابع نفسيّ على النصّ الأدبيّ: ويظهر ذلك جلياً في الشعر الصوّفيّ والمديح مثلما هو الحال في شعر سيدي لخضر بن خلوف، كما تظهر هذه الوظيفة في القصص التفسيريّة مثل الأحداث التي تجري في القصور والقفار التي توحى بالخوف.

. إضفاء طابع رمزيّ على النصّ: ويكون المكان هنا ذا طابع خاصّ؛ لأنّ ملامحه تستمدّ من فكرة معيّنة مثل الإيمان، وما ينشأ عنه من وصفٍ للحنة والنار والصراط... وغيرها ممّا هو مرتبط بالغيبيات، أو لنقل ما بعد الموت والآخرة كما هو في شعر سيدي لخضر بن خلوف.

. إضفاء طابع إيديولوجيّ على النصّ: وذلك عندما تكون الأماكن موظّفة لخدمة موقف إيديولوجيّ.

. وظائف داخلية: يكون فيها المكان عنصراً فعّالاً حيث يتحكّم في حركة النصّ الأدبيّ، ويؤثر في شخصياتها وفي علاقاتها وأحاسيسها، وتمثّل هذه الوظائف الفرعية في:

أ. المساهمة في رسم الشخصية: وهذا من خلال أمكنتها والوسط المعيشي، وقد يجعل المكان نفسه أحياناً بمثابة شخصية.

تنوير: كيف يمكن أن يكون المكان بمثابة شخصية؟ لو قرأنا رواية الدروب الوعة لمولود فرعون؛ فإنّه بمجرد ذكر الحقل يتبادر إلى الذهن شخصية مفران لأنّ هذه الشخصية دائماً في الحقل، فالمكان شخصية لا يعني أنّ الحقل هو مفران؛ ولكن وجود ترابط وثيق بينهما يوحى وكأنّ المفهومين واحد. وذلك ما نجدّه أيضاً عند نازك الملائكة في قصيدة نجمة الدم، إذ يصل بها حبّ بيروت إلى ربطه بالحبيب والابن؛ حيث يكون التداخل بين الشخصيات والمكان كبيراً، ولبنان بمثابة الشخص الابن الحبيب.

ب. المساهمة في إبراز مشاعر الشخصيات: هذه الوظيفة هي استبطانية من خلالها تبرز الأماكن التي تتأمل أحاسيس الشخصيات؛ سواء الشاعر والكاتب أو الشخصيات الموظّفة في العمل الأدبيّ، وهي وظيفة إيجابية؛ فيها تخرج الشخصيات من صورتها المادية إلى صورة تبدو في المجال النفسيّ، انظر إلى قول نزار قباني:

يأتي عصفور دوري

تمتلى الغدران

فالغدران من أجمل المثيرات للمشاعر في النفس البشرية، فالجلوس إلى مجاريها تجعل النفس تغتبط بتلاطم عباراتها. صوت خرير المياه. في الآذان، وهي ملجأ الشعراء والناس عموماً منذ القديم، كما هو مدون في الشعر العربي الجاهلي. ج. التمهيد لما سيقع : لأنّ توظيف مكان معيّن يوحي وينبئ بأحداث ستقع، فالمكان هنا بمثابة تمهيد للحدث؛ ومن ذلك قصيدة في المنفي في جزيرة سرنديب، وهي منفي الشاعر العربي محمود سامي البارودي؛ فالمكان يوحي بما سيكابد من شوق وحرمان وحاجة اجتماعية للآخر.

ويلاه من حاجة في النفس هام بها * قلبي وقصر عن إدراكها باعي

ويقول :

منازل كنت منها في بلهنية * ممتعاً بين غلماني وأتباعي⁵

د. المساعدة على وقوع أحداث أو ربط علاقات: وتبرز هذه كثيراً في الأماكن العامة كالمقاهي والمطاعم والملاعب وكذلك السينما. يقول اسماعيل غوقمات الروائي الجزائري: «هذه أول مرّة أرى فيها مطعمًا، ويقول: وكم مرّة ذهبت إلى السينما.»⁶

ففي مثل هذه الأماكن يحدث التعارف في أحيان كثيرة من خلال الأحاديث العامة، والكلام حول هموم المجتمع وأفراحه؛ فعند سيدي لخضر بن خلوف نجد المكان العام هو الزاوية والمسجد وساحة المعركة (معركة مزغران).

هـ. التعبير عن ترابط مجموعة من الشخصيات: ومثالها قصّة ماجدولين للمنفلوطي، حيث يمثّل القصر رابطة لمجموعة من الشخصيات ذات صلة قرابة فيما بينها.

و. الوظيفة التعليمية: ويمكن التمثيل لها بالقصص التاريخية كروايات جرجي زيدان ومنها رواية 17 رمضان؛ التي نجد فيها وظيفة تعليمية عن مقتل علي بن أبي طالب والظروف التاريخية والسياسية المصاحبة لذلك الحدث. ولجرجي زيدان قصص كثيرة في التاريخ العباسي والمملوكي والتركي وعصر الخلفاء الراشدين والفتح الأندلسي، وكلها ذات أبعاد تعليمية في المقام الأول.

وفي الشعر الوطني الشعبي والرسمي معاً نماذج كثيرة تبدو من خلالها الوظيفة التعليمية جليّة واضحة، ومنها أحداث سطيف وقالمة :

في خراطة هاجت سبائول * قتلت فيها بزوز وثرايسن

ويقول آخر :

قَالَمَةٌ تُمُّ الدَّمَّ عَادُ عِيُونُ * ثَانِي سُوْقِ أَهْرَاسٍ عَادُ أَغْفِيسِ

ز . الوظيفة المعرفية: وفيها يتم إبراز ملامح البيئة بكل أنواعها الاجتماعية والجغرافية الطبقيّة، منها قول الشاعر الشعبي بلخير بن فرحات :

قَصَّةُ يَوْمٍ سَطِيفٌ مَعْنَاهَا * مَا زَالَتْ فَالْقُلُوبُ مَكْمِيَّة

مَحَايِنُ قَاوِيْنِ شَفْنَاهَا * كَيْتُهُمْ فِي الدَّلِيلِ مَفْتِيَّة

ويقول بن قيطون صاحب ملحمة حيزية:

مَا جَاشَ بَنُ عِيَّاشٍ * رَاعِي لَشَهَبٍ بَابُنْ رِيَّاشٍ

زَادُوا مَا وَلَاؤُشُ * رَجَعُ السَّرِّ سُوْرُ ظَهْرَانِي

صَدُّوا قُتُوْتُ كُبَارُ * رَاْحُوا مَا يَبْقَتَاشُ الدَّوَارُ

في هذه الأبيات حديث عن معركة قادها البطل بن عيَّاش أثناء المقاومة الشعبية بالزيان، وفيها كلام عن التكافل والتعاون الاجتماعي بين العائلات داخل القبيلة (الدوار الواحد).

ح . الوظيفة النقدية: والمقصود بها كشف العيوب رغبة في الإصلاح، وتحسين الحال لا لتحطيم ما هو كائن، وهذا انطلاقاً من قناعات الشاعر أو الكاتب.

المكان في شعر بن خلوف : أنواعه ودلالاته:

للذات الشعرة أثر كبير في إبراز المكان وتجليته، فالمشاعر المتنوعة هي التي تحدّد موقف الشاعر من الأشياء والأحداث؛ كما تبرز رؤاه وأفكاره وعقيدته وإيمانه؛ ليكون المكان من هذه المسميات جزءاً لا يتجزأ.

إنّ موقف الشاعر ممّا حوله موقف محاط بالعوامل الاجتماعية المختلفة، وإنّ هذه العوامل هي التي تجعل هذا الشاعر يمارس العملية الأدبية بأيّ حال من الأحوال. فالشعر قبل كلّ شيء هو إحساس اتجاه من يحيط به، وما يرافقه في حياته من تعبير، يقول ابن رشيق: وإمّا سمّي الشاعر شاعراً لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره، على أنّ تلك المشاعر مهما كانت مرهفة وصادقة لا تكون ذات قيمة إذا لم تترك في البناء أثراً، وفي هذا يقول الناقد توماس إليوت وهو يتحدّث عن قيمة الشعر: «إنّما لا تترك في مشاعرنا؛ وإمّا في ما تصنع في مشاعرنا من صور.»⁷

وبعودتنا إلى ديوان سيدي لحضر بن خلوف فاحصين منقبين عن أنواع المكان، وتوظيفاته ودلالاته الاجتماعية والدينية والنفسية، وبعد قيامنا بعملية إحصائية للمكان الموظّف فيه، وانتقاؤنا لعينات منه على سبيل التوضيح لا على سبيل الحصر، فإننا نخرج بما يلي:

* - قصيدة (أحسن ما يقال عندي) :

لفظة (القبر) مكررة:

. إِذَا نَمْتُ أَنْوْمَ قَبْرِي * وَإِذَا فُئْتُ أَنْقُومَ حَيًّا

. فِي قَبْرِي بَاغِي تُوجَدُ * لِلجَنَّةِ مَفْتَا حَ أَنْتَ

الجنة والنار وجهنم والزخار:

. الكَاْفِرُ فِي النَّارِ يُخْلَدُ * وَالْعَاصِي يَرْجَا جَنًّا

. يَمْنَعُنَا مَنْ نَارَ تَقْدِي * جَهَنَّمَ حَرَى شَدِيدَةً

. يَغْسَلُ فِي الرَّخَا ز جَسْدِي * صَافِي عَذْبَ لَيْسَ مَالِحَ

البادية والقرية والخيمة والمدرسة:

. البَادِيَةُ الْأَعْرَابُ وَعَجَمُ * كُتِلَتْهَا تَاقِي وَعَاصِي

. وَعَسَاكِرُ بَطْبُؤْلِ رَنْتُ * تَنْسَجُ فِي قَرْيَةٍ وَخِيْمَةٍ

. وَمَدَارِسُ بِالْعِلْمِ تُنَادِي * وَذَوَاوِينُ الْخَيْرِ رُشْدَا

* - قصيدة (ما في بحر الظلام):

كررت فيها المفردات التالية : البحر ، السماء ، القبر ، الخيمة . كما وردت فيها مفردات أخرى هي : البحر ، السوق ، الرياض ، الوغى ، الأرض ، السماء ، الخلاء ، البر ، القرية ، المدينة ، الخيمة ، الجبل ، الغابة ، القبر ، الجنة ، النار ، البادية ، المدرسة ، الزخار ، جهنم .

* - قصيدة (الف استمثلوا كلامي) :

كررت فيها مفردة (الجنة) ووردت مفردات أخرى هي:

سموات ، الأرض ، الأوطان ، الصحراء ، الأسواق ، الخيمة ، حفرة ، السما ، الأودية ، الجنة ، نار جهنم .

* - قصيدة (لولا انت):

كررت فيها مفردات ووردت مفردات أخرى : السماء ، الأرض ، المدينة ، البحر ، السهل ، الأحدا ب ، الجنة .

* - قصيدة (اختارك الواحد الأحد):

كررت فيها مفردات ووردت مفردات أخرى منها : البر ، البحر ، الواد ، القبر ، مكة ، السماء .

- توسيع المدونة الإحصائية:

فبعودتنا مرّة أخرى إلى الديوان وبصورة عامّة؛ أمكننا إحصاء بعض المفردات التي تكرّر ورودها في شعر سيدي لخضر بن خلوف، ونذكر منها :

نار الجحيم ، الأودية ، حفرة ، الفردوس ، البستان ، جنان الخلد ، الصّحراء ، السّهل ، الغار ، الوطن ، السّوق ، مكّة ، الفلاة ، قصور ، البلاد ، السّجن ، القفار ، دار الدّنيا ، دار مظلمة ، الجنّة دار ، الكعبة ، البير ، الحطام ، النّعيم ، البيت ، دار السّخاية ، اللّحد ، السّعير ، بيت الدّود ، الصّفا ، المروة ، مزگران ، الحوض ، سيق ، مغراوة ، النّيل ، الدّشرة ، البرّ ، المغرب ، الحفير ، اليعقوبيّة ، الصّور ، الجزائر ، متيجة .

-البعدان النّفسيّ والجماليّ للمكان في شعر بن خلوف :

أوّلا . البعد النّفسيّ:

وظّف الشّاعر بن خلوف المكان بكثير من الأبعاد، البعد الدّينيّ والنّفسيّ والجماليّ، ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى ما يلي:

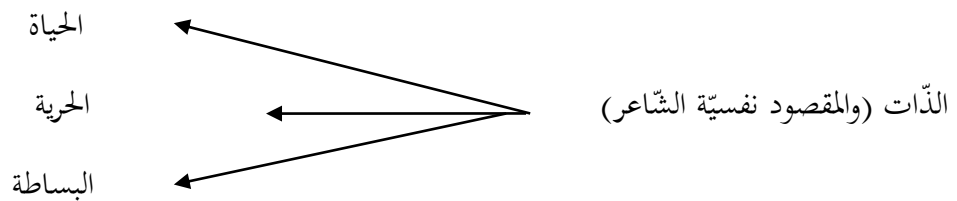
* لفظة المدينة:

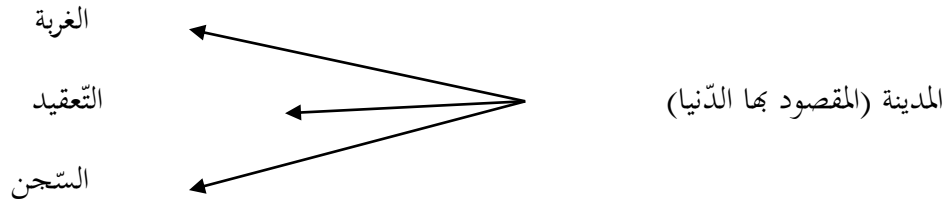
التي وردت مرّتين رغم علمنا أنّ سيدي لخضر بن خلوف لم يعيش في المدينة، هذه المدينة التي لا تتلاءم مع نفسيّة الشّاعر الهادئة البعيدة عن الضّحيج والتّناقض والتّداخل والتّفاق أحيانا؛ «المدينة صاحبة نائرة تقزم الإنسان وتختصر وجوده، ليلها كنهارها يعاني فيها الإنسان التّوتر والفراغ أحيانا، خاصّة أنّ أغلب النّاس الذين يتحرّكون في المدن غرباء عن بعضهم البعض؛ إذا التقوا ففي ذهن الواحد منهم آلاف التّصوّرات عن الآخر.»⁸

يقول الشّاعر:

مَسَافِرِينَ رَأَانَا عِنْدَ الْمُؤَلَى حَقِيقُ * بِجَمِيعِنَا نُسِيرُوا لِمَدِينَةِ الْآخِرَةِ

إلّا أنّ المدينة هنا هي مدينة لا تشبه مدينة الدّنيا، وسواء كان توظيف اللفظة عن قصد أو عن غير قصد؛ فإنّ الشّاعر يبدو بارعا في عقد هذه الموازنة بين المدينتين. ويمكن أن نمثّل للمدينتين بهذين الشّكلين:





هذه المدينة الموظّفة في البيت الشعريّ فيها دلالة على الموت والغربة التي يصير إليها الإنسان، فهو لا يعرف إلاّ نفسه لقلوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس، الآية 34 ← 37].

أمّا لفظة (السّجن) فإن لم تدلّ على السّجن حقيقةً؛ فإنّها تدلّ على الخوف والانغلاق الذي يلفّ النفس، وإن لم تدلّ على التعقيد فهي تدلّ على مشاعر الملح من أهوال الآخرة.

* لفظة الوطن :

وردت ثلاث مرّات، وللوطن مكانة كبيرة في نفس الإنسان فما بالك بنفس التقيّ المؤمن الدّاعي إلى الخيرات في الدّنيا لتأمين مكانة في الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء، الآية 66]. والتّصّ القرآنيّ يسوّي بين قتل النفس والخروج من الوطن؛ فللوطن مكانة كبيرة في نفسيّة الشاعر تمثّلت في قوله :

ظَلَّ يُسِيرُ بَعْسَاكُرَهُ وَالْقَوْمُ * فِي وَطْنٍ مَتَّيَجَةٍ وَبَاحِ الْمَا

« إنّ فطرة الرّجل معجونة بحبّ الوطن؛ حتّى شبّه الحكماء الغريب باليتيم اللّطيم. »⁹ وسنترك القرية والصّحراء والمسجد والقبر والجنّة والنّار لفرصة أخرى نظرًا لتقيّدنا بشروط المداخلات في الملتقيّات إلى فرصة أخرى، مع الإشارة أنّ الدّراسة جاهزة، وسننتقل إلى تناول البعد الفنيّ للمكان.

ثانيًا. البعد الفنيّ للمكان :

وسأقتصر على بعض المفردات كمدخل فقط، لأنّ نقل بعده إلى البعد الدّينيّ، فالمكان من المشكلات الفنيّة والجماليّة في الأعمال الأدبيّة خصوصًا وباقي الفنون عمومًا، وللأثر الفنيّ دور فاعل في إكساب النّصّ جماليّة وقدرة على تحريك مشاعر المتلقّي، وسنركّز اهتمامنا على بعض الخصائص الفنيّة للمكان في شعر بن خلوف، يقول ابن رشيق في كتابه العمدة عن البيت الشعريّ أنّه «وحدة بناييّة متكاملة موضوعًا وفنًا.»¹⁰ ويقول سيدي لخصر بن خلوف :

يَوْمَ الْمَمَاتِ نَمَشِي وَحَدِي * فِي دَارٍ مُظْلَمَةٍ مَسْدُودَةٍ

ففي الشطر الأول حديث عن الوحدة بعد الموت؛ لا مؤنس ولا رفيق، لتتضح في الشطر الثاني من البيت معالم هذه الوحدة بعد تقديم صفات المكان من ظلمة وانغلاق، وهي صفات القبر فتكتمل بذلك البنية الفنية للبيت، ويظهر معنى الوحدة موحياً بتحضير النفوس لذلك اليوم العسير بأسلوب أقلّ تخويلاً من أسلوب الوعظ والإرشاد المبني على طريقة الترهيب.

ويقول بن خلوف في مقام آخر:

ذُحِيلَ لَكَ بِالْعَرْشِ وَمَا فِيهِ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ مَكَّةَ

في الشطر الأول من البيت حديث عن المكان، وكأنّ شخصاً يلج هذا المكان بعدة وعتادٍ يريد اقتحامه، ولو فَصَّلْنَا هذا الشطر عن الشطر الثاني لما اتّضح لنا المعنى، ولكن العجز يوضح لنا المقصود فيكتمل البناء الفني؛ وذلك بذكر كلمة (مكة) التي تزيل كلّ الغموض الذي حصل نتيجة التصوّرات التي أمدنا بها الشطر الأول من البيت، فتظهر معالم المكان الذي يخبر عن نفسه؛ وهو مكان شديد القداسة والرهبة، ليكون للفظه (مكة) هنا وظيفة تفسيرية توضيحية.

إنّ إحساس الشاعر بالمكان جعله يظهره في أبهى صورة وأجمل منظر، وهذا لأنّ المكان محمود مألوف، وعلى نقيض ذلك تبدو الصورة إذا كان المكان مذموماً، حيث يجتهد الشاعر كلّ الاجتهاد لوصفه بأبشع الأوصاف وأقبح الألفاظ.

ففي مواضع ذكر الجنة بكلّ أسمائها يبدو المكان رائعاً جدّاً وأخاذاً وهادئاً أحياناً، وهي دار الخير والروض والرضوان، والناس تتزاحم تحت ظلال أغصانها وبين حورها ويرجأها. فيقول:

أَجْعَلْنَا فِي السُّخَايَةِ رَضْوَانٌ * نَأْخُذُوا الْكُتَابَ بِالْيَمِينِ

نَزَاخِمُ مَجَالِسُهُ حُورِ الْعَيْنِ * فِي ظَلِّ غُصَانٍ يَا سَرِينِ

أمّا صورة النار فلها عند بن خلوف أوصاف ترعب النفوس، يقول في قصيدة (قم صلي):

ذُخِلَتْ بَفْعَالِكَ يَا غَفْلَانٌ * مَهْدَهَا فِي عِظَامِ الطُّوفَانِ فَمُ صَلِّي

ولهذه النار أوصاف أخرى، فهي مكان لخلود الكافرين والغاصبين الذين يترجّون الرسول طلباً للشفاة، يقول الشاعر في قصيدة (أحسن ما يقال عندي):

الْكَافِرُ فِي النَّارِ يُخَلَّدُ * وَالْعَاصِي يَرْجَاكَ حَتَّى

وسنكتفي بهذه العيّنات عن فنيّة المكان في شعر (بن خلوف)، لنتنقل إلى البعد الديني للمكان.

ثالثاً . البعد الدِّيني للمكان :

المكان الدِّيني هو العنصر الغالب في ديوان بن خلوف ، ويظهر ذلك جلياً بدراسة إحصائية بسيطة للمفردات الموظفة في كلِّ القصائد دون استثناء، ومن هذه المفردات: (الجنة). قد يتساءل القارئ عن كثافة توظيف لفظة (الجنة) مع مرادفاتهما، هل هو تجنب للوقوع في التكرار؟ أم أنَّ الشَّاعر كان واعياً تماماً للفروق الموجودة بين ألفاظ الجنة؟ فالجنة ليست هي النعيم، والنعيم غير الفردوس، وليست الفردوس هي الجنان لأنها أعلى مقاماً ورتبة من الجنة، ولها بعد ديني من حيث الثَّواب لأهل الصَّلاح، يقول بن خلوف في قصيدة (يمدح بها خير الأنام):

في الفردوس يُكونُ مقامي * داري صاحب الغمامة

فهنا إشارة واضحة لفضل مرتبة أصحاب الفردوس، وهو مجاورة خير خلق الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا أعلى مقام يرحوه المؤمن الصَّالح لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة، الآية 82]. ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف، الآية 107]. فهذه الآيات وغيرها تؤكد فيها الله . عزَّ وجلَّ . عظمة هذا المكان بمختلف الألفاظ التي وردت بها كلمة (جنة)، كما يوضح بعض صفات هذه الجنة من نعيم وطيب عيش؛ أعدد لأصحاب القلوب الخاشعة والنفوس الركيَّة المؤمنة. فمن هذه المعاني الواردة في الآيات الكريمة استمدَّ الشَّاعر معانيه في توظيف كلمة (جنة)، إذ أنه كثيراً ما يقرن بين لفظتي (جنة) و(نار) في البيت الشعري الواحد لإبراز المعنى جلياً من خلال الموازنة بينهما، فيقول في قصيدة (إلا وجه الحبيب غاب):

النَّار حامية لها كُفراً ويهُود * والجنة لأمة النبي لا زائد غيره

فالجنة هي مكان انبعث الرُّوح والحياة الخالدة الدائمة، وهي عند سيدي لخضر بن خلوف مكاناً للأمل الذي يبقى على ارتباط مئى النفوس بالدار الأخرى، والشَّاعر هنا يبحث على الأعمال التي توصل إلى هذا المكان وكلَّ ما يقرب منه، نجد منها الدعاء للنفس وللرسول . عليه أزكى السلام . فتراها :

هي سباب الدُّخول للجنة * هي سباب النجاة من الأهوال

وهذا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف، الآية 10 - 11].

-الإحالات:

1- حنان موسى : الزمكانية وبنية الشعر المعاصر ، أحمد عبد المعطي حجازي أنموذجاً، رسالة دكتوراه، جدار للكتاب، الأردن، ص 19.

- 2- المرجع السابق : الزمكائية وبنية الشعر المعاصر، ص: 22 .
- 3- نفسه ، ص : 22.
- 4- غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ص: 7
- 5- عبده بدويّ : دراسات في النصّ الشعريّ العربيّ الحديث، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: 45.
- 6- اسماعيل غومقات : المصائد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية ، الجزائر، 1988، ص: 9.
- 7- محمد عويد ساير الطربولي : المكان في الشعر الأندلسي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 52.
- 8- حنان محمد موسى حمودة : الزمكائية وبنية الشعر المعاصر، ص: 51.
- 9- د. فاطمة حميد السويدّي : الاغتراب في الشعر الأمويّ، مكتبة مدبولي، ط1، 1997م، ص: 3.
- 10- محمد عويد ساير الطربولي : المكان في الشعر الأندلسي، ص: 354.
- أهمّ المراجع المعتمدة:

1. اسماعيل غومقات : المصائد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية، الجزائر.
2. حسان تّمّام : اللغة العربيّة معناها ومبناها، الهيئة العامة للكتاب، ط2، 1979م.
3. حنان موسى: الزمكائية وبنية الشعر المعاصر، أحمد عبد المعطيّ حجازيّ أمّودجًا، جدار للكتاب العالميّ، عمّان، الأردن.
4. سعيد يقطين: تحليل الخطاب الزوائّيّ (الزمن، السرد، التّبيير)، المركز الثقافيّ العربيّ، ط1، 1989م.
5. عويد محمد ساير الطربوليّ: المكان في الشعر الأندلسيّ من عصر المرابطين حتّى نهاية الحكم العربيّ، (484 هـ - 897 م)، مكتبة الثقافة الدّينيّة، القاهرة.
6. غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
7. عبده بدويّ: دراسات في النصّ الشعريّ الحديث، دار قباء، القاهرة.
8. فاطمة حميد السويدّي: الاغتراب في الشعر الأمويّ، مكتبة مدبولي، ط1، 1997م.
9. محمد بن الحاج الغوثي: ديوان سيدي لخضر بن خلوف، ابن خلدون للنشر والتوزيع.

